

أغنية الطيف .. فأغنية الظل

إلى غسان زقطان

جهاد هديب

1

اندلَقَ دُمٌّ عَلَى الْعَتَبَةِ .
كُفٌّ لِمَجْهُولَةٍ تَعَمَّسَتْ بِهِ انْحَفَرَتْ فِي الْحَائِطِ قَرِيبًا إِلَى الْبَابِ وَالذِّكْرَى . الْوَلَادَاتُ تَعَسَّرَتْ .
أَصْغَ أَيْضًا ؛ كَأَنَّمَا لَطَّائِرٌ تَمُّ هَذَا الصَّرَاخُ الَّذِي يُوَجِّعُ .
أَنْظُرْ ، فِيهِ مَنْ تَبِعُوا خَيْطَ الْبَشَارَةِ . لَقَدْ انْطَفَأَتْ نَارُهُمْ وَافْتَرَقَتْ بِهِمِ الدَّرْبُ . أَخَذَتْهُمْ الْغَفْوَةُ
إِلَى شَجَرَةٍ خَبَّأَ جَنْدَرُهَا أَفْعَى خَلَطَتْ ثَبْرَهُمْ بِتَرَابٍ ، وَحِينَ أَفَاقُوا لَمْ يَكُنْ لِلْفِكْرَةِ ظِلٌّ .
مَضَوْا إِلَى مَصِيبَاتٍ تَخَوَّرُ مَاؤُهَا حَيْثُ تَصِلُ الرَّغْبَةُ كِبْقَايَا مَرْكَبٍ تَحْطُمُ وَالشَّمْسُ تَدْخُلُ إِلَى
خَدْرِهَا كَمَا لَوْ خَرَجَتْ لِلتَّوِّ مِنْ فَرْنٍ خَزَافٍ .

جهاد هديب، شاعر من الاردن

2

أُخِذْتُ مِّنَا الصُّورُ؛ صَنِدْتُ بِنِبَالٍ مُرَيْشَةٍ . أُخِذْتُ مِّنَا الْأَسْمَاءُ وَمِن خَوَابِينَا المَوْتَى والقلائد .
طَيْرٌ ذِكْرِي أُطْعِمَ حَنْطَةَ نَسَائِنَا قَرَّ عَنْ شِمَالٍ ، وَنَهَرَ بَلَلٌ أَثْدَاءَهُنَّ جَفَّتْ دَمْعَتُهُ بَيْنَمَا نُسَاقُ إِلَى
مِرَافِيءٍ أَنهَجَرَتْ .

أُشِيرَ إِلَى عَرَبَةٍ تَجْرِي فِي قَفْرِ . رَأَيْنَا أَعْمَارَنَا تَنْبُحُ خَلْفَهَا مِثْلَ كِلَابٍ صَنِيدٍ ؛ فِيمَا النَّبِيدُ يَجْرِي
إِلَى الجرارِ والخَبْزِ فِي القمَحِ والحَلِيبِ عَلَى المائِدةِ .

تَشَقَّقَتْ أَقْدَامُنَا ؛ تَشَقَّقَتْ تَحْتَهَا المَاءُ . وَلَيْسَ خَوْفًا مَا قَضَى عَلَى الصَّرِخَةِ بَلْ قَضَمَهَا سَرَبٌ مِّن
النَّمْلِ .

3

وُلِدُوا لِامْرَأَةٍ مَسَّهَا أَنَّ إِلَهًا قَد مَسَّهَا . وَالَّذِي حَدَّثَ أَنَّهُمْ وُلِدُوا مِنَ الشَّغْفِ ؛ مِنَ الرِّوَايَةِ وَمَشْهَدِ
الجبالِ .

ثُمَّ خَرَجَ رَجُلٌ مِّن بُحَّةٍ فِي الصَّوْتِ . نَأَى فَوْصَفِ . أَطَّلَ قَمْرٌ حَنِينَهُ قَائِظًا عَلَى أَيَامِهِمْ .

4

لَا دَمَ لَهُ عَلَيْنَا هَذَا الحَنِينُ المَحْمُولُ فِينَا مِثْلَمَا تَرْتَدِي فِلاحَةٌ ثَوْبَهَا وَتَبْعُثُ مِنْهُ رَائِحَةَ مَوَاقِدَ
بُرْدَتِ .

مَا مِنْ أَحَدٍ اقْتَرَبَ مِنْهُ بِسَكِينٍ أَوْ أَصَابَهُ بَنَصْلٍ . وَالْحَالِ . إِنَّا أَضْفَنَّا إِلَيْهِ مِلْحًا فَلَمْ يَجْرِ بَعِيدًا إِلَّا
عِنْدَمَا أَدْبَنَّا قَلْبَهُ .

العجائزُ فقط ، نَذْكُرُ بِكَاءِ هُنَّ لِأَجَلِهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ . وَنَذْكُرُ أَنَّهُ تَرَكَنا لِيَعْمَلَ كَلْبَ حِرَاسَةٍ ، وَلَمَّا
عَادَ يَتَسَوَّلُ ، قَالَ : يَنْبَغِي أَنْ تَدْفَعُوا لِي .

حِينَهَا عَادَتْ تِلْكَ البَنْتُ . كُنَّا أَعْرَنَاهَا لِيَمِينِ غَرِيبٍ أَعَارَهَا لِسَوَاهُ . حَجْرٌ رَوْحُهَا تَرْقُدُ فِي
الغبارِ . تَصَمَّتْ ؛ الصَّمْتُ دَمَعْتُنَا نَدْحَرُجُهَا إِلَى أَوْلَيْكَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْأَلَمِ كَمَا لَوْ يُغَادِرُ المَرءُ
خَيْمَةً ؛ أَخْلَاطُ مُحَارِبِينَ قَالُوا إِنَّهُمْ سَيَعُودُونَ مِنَ الشَّمْسِ بِحَجَرِ اللَّهَبِ . أَلذَلِكَ اعْتَذَرُوا فِيمَا
يَمْتَدِحُونَ المِرَافِيءَ؟

رصفوا للأعداءِ مدنا منحوها القوسَ والقنطرة؛ يالَفرطِ ما وقعوا في أسرٍ. وخلفَ الأكماتِ
قادوا مفاوضاتٍ كبيرةٍ مع عاهراتِ السواحلِ بينما العصافيرُ شاهدٌ ينقرُ حبَّ رغبةٍ تناثرَ كيفما
اتفق.

هلكوا في المراكبِ قبلَ أنْ يعبروا إليها تلكِ الأرضِ حيثِ يولّدُ الذهبُ. سقطوا وعيونهم في
السماءِ العميقةِ تَقَلَّبَ لهم صفحةٌ، صفحةٌ.

5

كانت بلادا من الغيمِ تلكِ التي حلّوا فيها مرارا؛ غصّةٌ لا تقَعُ فيها الذكرى إلى أرضٍ وغروبٌ
كثيرٌ يُمرُّ في تخومِها.

أرشدوا إلى ألمِ كأنما إلى نبعٍ أرشدوا. ثم لم يورثوا غناءً بل سهوا عن أوراقِ خبأوها في معانفٍ
نسيّت في المشاجبِ. وقعَ منها حبرٌ لما وقع فيه عابِرٌ خطأً كان أثرهم له.

في صمتهم بريةٌ موحشةٌ وفي الوحشةِ زجاجٌ يتهشّم. صارَ الموتى يشبهونهم؛ كسروا رتاجاتِ
المقابرِ وخرجوا إلى الأزقة. لقد زاحموا في تلكِ النبعِ ونقبوا ما فضّلَ من ألمٍ. خطّوا دائرةً في
الرمْلِ؛ منها عبروا إلى ما مضى. تعثروا في الخطوِ والكلامِ إن افتقدوا واحداً أو وجدوا امرأةً قد
قرّت به. وضربوا الأرضَ بأقدامهم لو مات أحدٌ. وقفوا على مقربةٍ يتوعدونه المضيّ في سردابٍ
يضيّقُ؛ تتكدس فيه ظلمةٌ وينتهي بحريقٍ حيث تسقط روحه إلى يديه عصفورا تمزق جناحهُ.

مروا بملوكٍ ما قايضَ أحدهم عرشه بعارِ امرأةٍ ولا تقدّم بالفراشةِ قربانا يذبح على عريِ أميرةٍ
بُردٍ مخدعها.

مروا بجنودٍ في مراصدهمِ العاليةِ والحجارةِ التي قصبوها تحملُ ملامحهم. وأخفوا قلقنا ظلّ
يؤرّجُ صوراً في الحائطِ ويرجّفُ ضوءاً يخبو في أسرجةِ نساءٍ أضاء بياضهنّ المخابئ.

6

إنهنّ بناتنا منْ عدنّ من النبعِ بجرارٍ فيها ماءٌ حرّث استمطرته من غرباء. نقعن فيه السوسنَ
والحنطة. تركنّ النَّقَعِ تحتِ النجمات. رأينا جدائلهنّ تطولُ كلما غسلنّ بالنقعِ عريهنّ؛ رأينا ما
ترك الغرباءُ كنعشٍ في صحرةٍ عاليةٍ أو ذكرى مقبلة.

حمقى ؛ نضِلُّ في الانتباهِ كلِّما تذكَّرنا عُرْيُنَهُنَّ في البَرِّكِ أو بين الصخورِ ثمَّ تحسَّسنا لذَّةَ مبهمةٍ
في أعضاء ترهَّلت بلا آثام .

حمقى ، نتذكَّر فتسطفقُ أيدينا . ارتحلنا إلى حَيرةٍ وحفرنا قبرا . ثمَّ أُحرقَ بخورٍ في معاطنا
وَنُؤيِّ بالمرايا عن الليلِ وعُلقتُ تعاويذٌ في الصدور .

7

طُردوا من الحكايةِ إلى الطرقات . ولما وُلِدَ الهُتافُ عادوا إليها ثمَّ بقوا كمن يقطنُ بيتَ سواه .
لأَيُّوبَ إليهم . مثلُ عشبٍ يكثرُ بلا حيلةٍ أو ذريعة . يُرى إليهم من عينِ البابِ أو من بين ساقينِ
انفرجتا ثمَّ تدلِّي بينهما رأسٌ .

أميلَ إلى الصمتِ بل الهذيانِ مذُجَّلسٍ بعضُ على حجارةٍ أُخرجتُ للتو من النارِ ومذُ قيلَ
عن آخرين قضاوا ركلا في العتمات . كلِّما لُوِّحَ لهم أصابهم هلعٌ واحتشروا كعصا في القبضةِ
الواحدة .

أجْراء .

ياوموا في قذفِ النردِ على الأرصفة . يلهثون والخسارةُ حجارَتُها خلفهم كحجارةٍ تنحدرُ من
زلزال .

8

عوى قريبا من ظلِّنا فارتجفَ الظلُّ . غابَ أو رحلَ فنسيناهُ . لكنْ ، خرجَ إلينا وجهه من الموسيقى
أولا . ثم تراءى فوقَ الجبالِ من ضبابٍ وسحابٍ يكادُ يَسوِّدُ ؛ ولما بلغنا البحرَ كان في الزرقةِ فيروزا
يميلُ إلى دُكنةٍ .

غسلنا وجهه الفسيحَ والذاهلَ . قلَّمنا أظفاره . بدمعها ؛ أجملُ عذارانا مسحتْ قدميه . أخرياتُ
جمعنَ شعره وجدلنَه . القُتينا مفاتيحنا وخطانا إلى الماءِ . طُفنا به وابتهلنا إليه أن لا يموت .
إنَّه يأسنا ؛ الكيمياءُ القديمةُ من رجاءٍ وفزعٍ لا ينتهيان .